

الفصل الثاني عشر

لم تعرف المدينة قط عامًا كهذا العام، امتلأ فيه شهر الصوم بالخير والبركة وبالحب والتواصل، وبذكر الله والعكوف على طاعته، حتى لم يشكُّ الفقير فقرًا، ولم يحس البائس ضرًا، ولم يجد الغني غرورًا بثروته ولا فتنة بماله وجاهه. إنما شاع في المدينة شيء من الدعة والأمن والأمل والرخاء، فصام الناس مخلصين لله في صومهم، وقد اطمأنوا جميعًا إلى أنهم سيفطرون إذا وجبت الشمس كما لم يتعودوا أن يفطروا، وسيؤدون صلاتهم على أحسن ما تؤدي الصلاة، وسيسمعون القرآن كأحسن ما تكون تلاوته وترتيله، وسيعودون إلى بيوتهم فينامون نومًا هادئًا مطمئنًا ليستقبلوا يومًا راضيًا سعيدًا.

وكان الشيخ مصدر هذا كله؛ فقد عاد من القاهرة في هذا العام كما تعود أن يعود من أسفاره، فاحتجب عن أصحابه ثلاثة أيام. ثم ظهر لهم في اليوم الرابع، فقال لهم وسمع منهم، ولكنه قال لهم أثناء السمر: قد أظلنا شهر الصوم. ثم التفت إلى خالد وقال ضاحكًا: وما أرى قاضيك إلا سيأمرنا بالصوم بعد غد. ثم أطرق ساعة ورفع رأسه وقال: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا شعبان ثلاثين يومًا. وما أرى أنه سيغم علينا غدًا، وما أرى أننا سنكمل شعبان ثلاثين يومًا. سنصوم بعد غد إذا، فأذنوا في الناس، ولبيلغ القريب منكم البعيد في المدينة أن من شاء أن يكرمني فهو ضيفي أثناء الصوم كله. فلما سمع جلساء الشيخ حديثه هذا وجموا له شيئًا كأنهم يعجبون لما سمعوا، وينكرون هذه الدعوة العامة.

ولكن الشيخ قال في تودة وهدوء: إن الذين صحبوني منكم إلى القاهرة يعلمون أن يديّ لم تمتلئ قط بالخير والنعمة كما امتلأنا في هذه الرحلة. والذين لم يصحبوني إلى القاهرة قد رأوا من غير شك هذه السفن الكثيرة الموقرة التي ألقت مراسيها على الشاطئ وأرسلت إلي ما كانت تحمل من أنواع الهدايا وضروب البر. ولست أدري ماذا